المقامة النُّعَاسِيَّة

(الأستاذ خليفة غيلوفي)

اتَّفَقَ لِي أيَّامَ الدِّراسةْ، وكنتُ أظُنُّ نَفْسِي مِنْ أهْلِ الفِرَاسَةْ، أَنْ جَاوَرْتُ طَالِبًا عَلَيْهِ علاماتُ الوَجَاهَةْ، وَتَوَسَّمْتُ فِيهِ النَّبَاهَةْ، وقُلْتُ يُعِينُنِي عَلَى عَوَادِي الزَّمَانْ، وَيَشُدُّ أَزْرِي أيَّامَ الامتِحَانْ، لَكِنَّ الأقْدَارَ جَرَت بِغَيْرِ مَا كُنْتُ أرْغَبْ، ولا وَجَدتُ مِن صَاحِبِي مَا كُنْتُ أطْلُبْ، خَلَّةٌ فِيهِ أفْقَدَتْنِي صَوَابِي، وَحَطّمَتْ أعْصَابِي، فَهْوَ لاَ يَكَادُ يصْحُو مِنَ النّوْم، إلى أنْ يَنْقَضِي اليَومْ، يُغْرِيهِ الفِرَاشُ والمِخَدَّةْ، فيُظهِرُ لَه الحُبَّ وَالمَوَدَّةْ، وكانَ مَا رَأى السَّرِيرَ إلا نَاجَاهْ، وبَثَّهُ أشْوَاقَهُ وَفَدَّاهْ، وَتَمَثّلَ بقولِ الشاعر:

وإنّي فِي هَوَى النَّـوْمِ مُتَيَّـم . . . ومَا لِي سِـوَى النَّوْمِ عَشِيـقْ

وَدِدْتُ لَوْ أَنِّي فِي يَوْمٍ أُعَانِقُهُ . . . وأُخْبِرُهُ أَنِّي فِي هَوَاهُ غَرِيقْ

وَخَاطَبْتُهُ يَوْمًا خِطَاب الناصِحِ الرَّفِيقْ: أَمَا آنَ لَكَ أنْ تَسْتَفِيقْ، أمَا عَلِمْتَ أنَّ كثرةَ النُّعاسْ، والاشْتِهَارَ به بَينَ الناسْ، يُورِثُ قَسْوَةَ القلبْ، وأوْجَاعَ الظَّهْرِ والجَنبْ. والنومُ مِنْ أسْبَابِ تَرَاكُمِ الشُّحُومْ، ومَا تَشكُو مِنْ صُدَاعٍ يَدُومْ، أَلَمْ تَسْمَعْ مَنْ رَفَعَ الصَّوتْ، يُحَذِّرُ مِنْ مَغَبَّةِ الفَوتْ، وأنَّ النومَ تَوْأَمُ المَوتْ، ورَحِم اللهُ الشاعرَ إذ قال:

مَا أطَالَ النَّومُ عُمْرًا وَلاَ . . . قَصَّرَ فِي الأعْمَارِ طُولُ السَّهَرْ

وَكَانَ صَدِيقِي مُتَّكِئًا فَجَلَسْ، وكُنْتُ ظَنَنْتُهُ قَدْ خَنَسْ، فَقَال: أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ مَخَاطِرِ الكَرَى، فأنتَ فِي ذَلِكَ كَطَاحِنِ النَّوَى، لاَ يَجْنِي مِنْ تَعَبِهِ إلاَّ النَّزْرَ اليَسيرْ، وَيَظُنُّ ذَلكَ مِنْ حُسْنِ التَّدْبِيرْ، أَمَا عَلِمْتَ أنَّ النومَ رَاحَةٌ مِنْ كُلِّ هَمّ، وَوِقَايَةٌ لَكَ مِنْ كُلِّ غَمّ، وهَل السَّعَادَةُ إلاَّ أنْ تَغْفُو حتى الثُّمَالَةْ، وَتَهْجَعَ خَارِجَ حُدُودِ الإمْكَانِ والاسْتِحَالَةْ، وانظرْ إلى حَالِكَ أيّها الدَّعِيْ، فِي قِلَّةِ تَرْكِيزِكَ وَمَنْطِقِكَ العَيِيْ، وتَعَكُّرِ مِزَاجِكَ لأتْفَهِ الأسْبابْ، حتى تَجَافَاكَ الخِلاَّنُ والأصْحَابْ، وَمَا ذلكَ إلا مِنْ نَقْصِ النومْ، ولكنْ هَلْ يُجْدِي اللَّوْم، مَع مَنْ لَيْلُهُ نَهَارْ، وَنَوْمُهُ بالأسْحَارْ. ولله دَرُّ الشاعِرِ إذْ يَقُول:

يا قَوْمُ لاَ تَتَكَلَّمُوا إنَّ الكَـلاَمَ مُحَرَّمُ . . . نَامُوا ولاَ تَسْتَيْقِظُوا مَا فَـازَ إلاَّ النُّوَّمُ

فَعَجِبْتُ مِنْ مَنطِقِهِ، وقُوَّةِ حُجَّتِهِ. وَهَمَمْتُ بالرَّدِّ فِي الحَالْ، لكنَّهُ سَبقَنِي وقالْ: ولوْ لَمْ يَكُن النومُ أهَمَّ مِنَ المَاءِ والهَوَاءْ، لَمَا وَضعَتْ لَهُ العَرَبُ فَوْقَ العِشْرِينَ مِنَ الأسْمَاءْ، فهو النُّعَاسُ والكَرَى والغَفْوَةْ، وهو الاضْطِجَاعُ والرُّقَادُ والغَشَيَةْ، وإنْ أَرَدْتَ فهوَ الوَسَنُ والهُجُوعُ والرُّقُودْ، أوْ هُوَ السِّنَةُ والسُّبَاتُ والهُجُودْ، وإنْ تَشَأْ فَهُوَ النومُ والقَيْلُولَةُ والتَّرْنِيقْ، أوْ هُوَ الإغْفَاءُ والتَّهْوِيمُ والتَّغْفِيقْ، أَضِفْ إليْهَا الغُمْضَ والتَّسْبِيخَ والغِرَارْ، فَقدْ ذَكَرَهَا الثِّقَاتُ فِي الأسْفَارْ.

ثُمَّ تَثَاءَبَ وَتَمَطَّى، وَقَرَّبَ اللِّحَافَ يُرِيدُ أنْ يَتَغَطَّى، فَعَلِمْتُ أنَّ حَنِينَهُ للنومِ قَدْ عَاوَدَهُ، يَحْسبُ أنَّ فِرَاشَهُ أخْلَدَهُ، فَقُمْتُ عَنْهُ مُشْفِقًا عَلَيهْ، يَنَامُ سَادِرًا مِلْءَ جَفْنَيهْ، والعُمْرُ يَنْسَابُ مِنْ بَيْنِ يَدَيهْ. ولمْ تَمْضِ إلاَّ بُرْهَةٌ قَصِيرَةْ، حتّى سَمِعْتُ غَطِيطَهُ وَشَخِيرَهْ، نَمْ يَا صَدِيقِي نَمْ، قَدْ رُفِعَ عَنكَ القَلَمْ، غَدًا تُفِيقُ مِنْ سُبَاتِكَ الطَّوِيلْ، وتَنْفُضُ الكَرَى عَنْ جَفْنِكَ العَلِيلْ، وعِنْدَهَا تَعَظُّ الأنَامِلَ نَدَمَا، ويَبْكِي قَلْبُكَ حَسْرَةً وَأَلَمَا، فكُلُّ شَيْءٍ قَدْ مَسَّهُ التغييرْ، مِنْ حَوْلِكَ وَطَالَهُ التّحْوِيرْ، إلاَّكَ لَمْ تَزَلْ هُنَاكَ وَاقِفًا، فِي غَفْوَةٍ تُبْقِيكَ وَاجِفًا، بأوَّلِ الطّرِيقِ مَا انْطَلَقتْ، والدّنيَا مِنْ دُونِكَ قَد مَضَتْ، فأنْتَ كَمَنْ دُعِيَ إلَى احْتفَالْ، لَكِنَّهُ تَأخّرَ في الحُضورِ والإقْبَالْ، فَوَجَدَ الحَفْلَ عَلَى وَشَكِ الانتِهَاءْ، وتَفَرَّقَ المَدْعُوُّونَ في الأنْحَاءْ، كَذَا الدُّنيَا إذْ تَضْرِبُ المَوَاعِدَ، فَلاَ تُخْلِفْهُ بالبقاءِ رَاقِدَا، وإلاّ فَاتَكَ القِطَارْ، وَطَوَّحَتْ بِكَ الأقْدَارْ، ولله دَرُّ الشاعر حين قال:

ألاَ انْهَضْ وَسِرْ فِي سَبِيلِ الحَيَاةْ . . . فَمَنْ نَامَ لَمْ تَنْتَظِرْهُ الحَيَاةْ

الأستاذ: خليفة غيلوفي